من تراب الطريق (٣٨١) أدب الاختلاف؟!(*)

لم تعجبنى العبارات الفظة ، فضلا عن المنطق المغلوط ، الذى تصدت أو ردت به بعض الأقلام الحكومية ، فى تهجم غير لائق ، على كل من أبدى رأيا مخالفا فى مسألة الجدار الفولاذى العازل الجارى زرعه فى رفح على الحدود المصرية مع قطاع غزة ، الباقى ـ للآن !! ـ من فلسطين .. لم أجد ضرورة تربط بين مظاهرة الحكومة وبين شتم كل من يتحفظ على الجدار الفولاذى العازل لمنطق يراه أو حجج يتبناها .. هناك من يرى ـ وللأقلام الحكومية أن تختلف معه ما شاء لها الاختلاف ـ أن هذا الجدار يعبر عن منطق مقلوب ، تحول به الإخوة والأصدقاء إلى أعداء ، فيما بدا أنه يصادف أو يصادق ما يريده الأعداء الذين يتحقق لهم بالجدار العازل إحكام الحصار على (٥ , ١) مليون فلسطينى حبسًا وتجويعًا وحرمانًا من أبسط لوازم الحياة !

الجارى شتمهم والتطاول عليهم مواطنون مصريون ، وفيهم قامات عالية ، وأصحاب فكر ومنطق ، يمارسون حقا مشروعًا ، أو دعنى أقول يؤدون واجبًا مطلوبًا لا يجوز أن يضيق به أحد ، ناهيك عن أن يتحول القلم فى يده إلى قاعدة صاروخية لإطلاق قذائف الإهانة

(*) المال ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٩

والتحقير !! .. لماذا انبهمت المعايير وتاهت البوصلة ؟! وأين إن كان هناك سبب حقيقى وحجة للاختلاف ـ أين أدب الاختلاف وأدب الحوار ؟! لماذا نبادر إلى ترك الموضوع وحججه وعناصره ومنطقه ، لندوس على القيم ونحقر ونهين من لا يرى ما نراه ؟!

ترى ماذا سوف توجه هذه الأقلام من قذائف إلى شخصية دولية بالأمم المتحدة رأت ما يراه المتحفظون فى مصر على الجدار الفولاذى العازل الذى يحول الأشقاء إلى أعداء ، وزادت أن دعت إلى فرض عقوبات على إسرائيل على حصارها الجائر على الفلسطينيين فى قطاع غزة .. فقد نقلت الأهرام بصفحتها الأولى ٢٥/ ١٢ الجارى ، عن وكالات الأنباء ، أنه لأول مرة ـ فيما قالت ـ يهدد مسئول تابع للأمم المتحدة بفرض عقوبات على إسرائيل ، إذا ظلت على إصرارها فى فرض الحصار غير القانونى على قطاع غزة (والجدار الفولاذى العازل يكرسه أراد أم لم يرد !) ، حيث طالب ريتشارد فولك مقرر الأمم المتحدة الخاص بالأراضى الفلسطينية ـ طالب حلفاء إسرائيل فى أمريكا وأوروبا بالعمل على رفع هذا الحصار الجائر (الذى نزيده جورًا !!) ، ووصف الحصار على (١,٥) مليون فلسطينى فى غزة دون اعتراض دولى رسمى (ناهيك بالتكريس !!) ـ وصفه بأنه مأساة تمثل فشلًا ذريعًا تتحمله حكومات العالم والأمم المتحدة ، مما يوجب عليها أن تتحمل مسئولياتها لرفع هـذا الحصار ، وتطبيق توصيات اللجنة الدولية لتقصى الحقائق «جولد ستون» بشكل سريع وكامل .

ترى هل ستتمنطق الأقلام التى سبت وحقّرت المصريين ، فتكيل لمسئول الأمم المتحدة ما كالته وتكيله لكل من اجترأ من المصريين على إبداء تحفظه أو حجج اعتراضه على سلبيات زرع هذا الجدار الفولاذى العازل بيننا وبين الأشقاء الفلسطينيين المحاصرين أصلًا حصارًا إسرائيليًا محكمًا ومريعًا فى قطاع غزة ؟!

إن الآراء التى تحفظت على زرع الجدار الفولاذى العازل ، لم تنطلق من فراغات ، وإنما أبديت مقرونة بأسباب منها انعكاساته على قبائل سيناء وهم مصريون ، ورد الفعل الشعبى فى مصر ذاتها فضلا عن المنطقة العربية التى تمثل مصر حجر الزاوية الريادى فيها ، ومنها أنه التبس بالجدار مساهمة أمريكية بخبرات ومعدات وتمويل وإشراف أمريكى ، وأن مبررات العزل يمكن تحقيقها بوسائل بديلة غير جدار يكرس الحصار الإسرائيلى المريع على أشقائنا الفلسطينيين فى قطاع غزة الذى ظلت مصر مسئولة عنه حتى نكسة ١٩٦٧ ، وأن هذا العازل يخدم المخططات الإسرائيلية أكثر من أن يكون إجراءً لمقاومة تهريب ، وأن هذا الإجراء قد استقبل بسخط بين كثير من المصريين وصل بعضها إلى بيانات عاجلة فى مجلس الشعب !

فى تحليل للأستاذ الكبير سلامة أحمد سلامة ، بمقاله بالشروق ١٢/٢٥ الجارى ، أن الحجة التى تتساند إليها الإدارة المصرية فى زرع هذا الجدار ـ أنها تدافع عن أمنها وحدودها وسيادتها ، لا تعطى ذريعة لزرع هذا الجدار الفولاذى العازل ، فهو يسهم فى تكريس الحصار

الإسرائيلى ـ وتتخلى به مصر كلية عن واجباتها وتترك قطاع غزة لقمة سائغة لإسرائيل ، بينما توجد أمام الإدارة المصرية بدائل تستطيع بها تأمين حدودها من أى عمليات للتهريب أو حفر الأنفاق ، من هذه البدائل التوسع فى معبر رفح مع وضع وتنفيذ ضوابط وإجراءات صارمة تكفل لمرور الأشخاص والبضائع أن يكون تحت رقابة محكمة ، خاصة أن إسرائيل قد أغلقت باقى المنافذ !

ظنى أن المسألة أبعد كثيرًا من أن تؤخذ على أنها محض تأمين حدودى أمام عمليات تهريب ، فوسائل مقاومة ومنع التهريب متاحة ولا تقع تحت حصر ، ويمكن تطويق عمليات التهريب لا تطويق القطاع ! ـ بأداء نشط يستعين بالتقنيات الحديثة ويكفل تنفيذ ضوابط محكمة لما يسمح أو لا يسمح بعبوره خط الحدود .. أما زرع الجدار الفولاذى العازل ، الذى ترددت أنباء عن مساهمة أمريكية فيه ، فإنه يبدو إمعانًا لا شفيع له !! ـ فى تكريس الحصار الإسرائيلى الجائر على قطاع غزة ، وحرمان الفلسطينيين من سبل العيش والحياة ، ويضع الإدارة المصرية ـ أرادت أم لم ترد ـ فى معسكر واحد مع العدوان الجارى بلا انقطاع ، قد تتعدد صوره وأشكاله ، وقد تظهر إبادة الفلسطينيين واستلاب وطنهم فى مقدمة الشاشة ، بيد أن غاية إسرائيل بعيدة بعيدة ، تستوجب النظر إلى مقتضيات أمن مصر القومى بمنظور آخر يصنف الأمور تصنيفا صحيحا !

*****